الزنبق

العدد (131) خريف 2008

شهادات : مواقف إنسانية
د. حسن فتح الباب

محمود درويش

كل هذا الحضور

عدد خاص

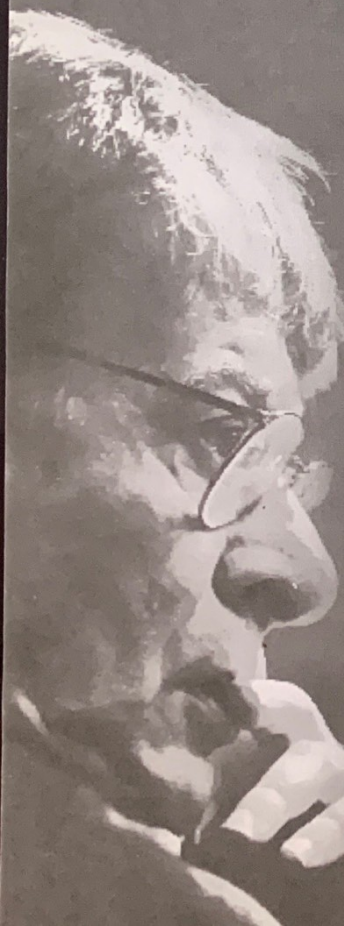

شهادات

- درويش.. مواقف إنسانية .... د. حسن فتح الباب
- تجربة شعرية ثرية .... د. أحمد درويش
- من شاعر المقاومة إلى الشاعر الحقيقي .... عبدالمنعم عواد يوسف
- الصانع الأمهر .... فريد أبو سعدة
- جدارية شعرية لا يستحقها إلا الموت الواعي .... خضير ميري
- المؤنسة .... وائل السمري
- ثقوب في قميص الحرير المذهب .... د. ناظم عودة
- لم يُصغ إلى يأس الضحية ولا غرور الجلاد .... موسى حوامدة
- فلسطين أمّ المجازات .... عزازي علي عزازي
- حالة مستديمة من عشق الوطن .... خالص عزمي
- شاعر الزيتون في حضرة الغياب.... د. أسرار الجراح
- لسنا ملائكة كما كنا نظن .... قاسم مسعد عليوة
- عن الموت الذي لا موت فيه .... عاطف عبدالعزيز
- أجمل ما ترك لنا .... سمير الأمير
- يُطل كشرفة شعر على ما يريد .... محمود خير الله
- الدولة القومية بين شعبية الشعر واتهامه بالرجعية .... محمود قرني
- الحب الأول .... نجاة علي
- بل أحبك حيًا .... عماد غزالي
- مات في الوقت المناسب! .... د. عمار علي حسن
- في مديح ظلك العالي .... هيثم الحاج علي

درويش.. مواقف إنسانية

د. حسن فتح الباب

مكللا بالغار والريحان وأغصان الزيتون ، ملتفا بالعلم الفلسطيني الذي عاش محمود درويش يحلم برفعه كعلم دولة استشهد في سبيل إقامتها من لا يحصون عددا من أبناء فلسطين ، مضى شاعر المقاومة الأكبر إلى مثواه الأخير في ثرى تلة مطلة على القدس المحتلة ، مشيعا في بلده رام الله من عشرات الآلاف من أبناء شعبه ، والموسيقى العسكرية تعزف والورود تُنثر احتفاء بقلب فلسطين النابض وقيثارة نضالها وشادي انتفاضتها .

وهذا المشهد التاريخي هو الثاني من حيث طابعه الرسمي المتمثل في أداء مجموعة من حرس الشرف التحية العسكرية أمام النعش، إذ كان الأول هو جنازة الزعيم الشهيد ياسر عرفات. وبين الدموع والهتاف ألقى الرئيس أبو مازن كلمة رثاء قال فيها: (اليوم نودع نجما أحببناه إلى درجة العشق، وإن يوم وفاة درويش هو يوم فارق في تاريخ الثقافة الفلسطينية والإنسانية، عندما ترجل هذا الفارس عن صهوة الشعر والأدب ليترك فينا شمسا لا تغيب ونهرا لا ينضب . وقد أوفى محمود درويش بسخاء، وزاد فينا طموحا إلى المزيد، لهذا لا نصدق أن رحل). وخاطب الرئيس الفلسطيني روح محمود درويش قائلا: ستظل فينا يا محمود لأنك تركت لنا ما يجعلنا نقول لك إلى اللقاء وليس الوداع.

الشاعر الإنسان

كما كان محمود درويش شاعرا كبيرا، فقد كان أيضا كبيرا على المستوى الإنساني، وقد تجلى ذلك في علاقاته بكل من يعرفهم في وطنه أو في الأوطان العربية الأخرى أو غيرها من الأوطان، إيمانا منه بوحدة الإنسانية، وانطلاقا لمشاعره ورؤاه من أدق ذرة في التراب إلى أبعد نجمة في التراب. فمن يعشق وطنه هذا العشق الذي كان يكنه لفلسطين يحتوي العالم كله بذلك الفيضان العاطفي الذي يتدفق في شرايين قصائده وفي مواقفه ، لأن الوطن ليس الأرض وحدها ، وإنما هو ما عليها ومن عليها من كائنات ، وما يدخره المرء في حناياه من من ذكريات طفولته وشبابه وكهولته . وقديما قال ابن الرومي :

ولي وطـن آليـت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطـان الرجال إليهمو
مآرب قضّاها الشباب هنا لكا
إذا ذكـروا أوطانهم ذكرتهمو
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فلا غرو أن تبلغ الصداقة بين درويش ورفاقه من الشعراء أسمى تجلياتها، وأن تكون أخوة تضرب بها الأمثال في رفعتها ونقائها، بل هي أعمق من الأخوة، وقد قال العرب: ربما أخ لم تلده أمك، بمعنى الصديق الصدوق الوفي الذي يؤثر من ربطته به علاقة صداقة على نفسه ، ذلك لأن الصداقة تقوم على الاختيار، على الرابطة البيولوجية التي تفرضها صلة الدم دون أن يكون للرابطة الشخصية دخل فيها.

وقد وسع قلب شاعر المقاومة الأكبر كل الشعراء من أبناء جيله، فلم يعرف الغيرة أو الحسد ممن بلغ منهم شأوا بعيدا في الإبداع، أو يصبه التعالي على

من هم دونه. والصداقة التي توثقت بين درويش والشعراء مثلها مثل تلك التي نشأت بين أبي تمام وعلي بن الجهم ، والتي عبر عنها وهو يخاطبه بقوله:

إن يكد مطرف الإخـاء فإننا
نغدو ونسري في إخـاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا
عـذب تحـدر مـن غمام واحد
أو يفترق نسب يـؤلـف بيننا
أدب أقـمـنـاه مـقـام الوالد

فمبدع الظل العالي وهو عنوان أحد دواوينه العشرين لم يشمل الفدائيين الشهداء فحسب ، بل شمل أصدقاءه الأحياء والأموات ، فهم عنده خلاصة الأمة العربية ولسانها المعبر عن آلامها وأحلامها .

من هؤلاء الأصدقاء الشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان مبدع ديوان (لابد من التفاصيل) الذي صور فيه معاناة المواطن العربي في حياته اليومية ونقد تسلط الحكام ، فكان من المغضوب عليهم . وقد التقيت بشاعر المقاومة الكبير في حفل أقيم بدمشق في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، وحضره جمع غفير ضم بعض القيادات السورية، ومندوبون من الدول العربية ومن أعلام الأدب والسياسة والثقافة ، ودار حديث على مقربة مني بين محمود درويش ووزير الثقافة السوري تناول الخلاف بين ممدوح عدوان ووزارة الثقافة ، وما أدى إليه من إصدار الأوامر إلى الصحافة وغيرها من وسائل الرأي العام بحظر نشر وإذاعة قصائد الشاعر ومقالاته .

وكانت كلمة درويش أشبه برافعة تولاها محام مثقف يدافع عن الحريات وفي مقدمتها حرية الفكر والتعبير. وقد استفاض الحوار بين الشاعر الذي ألح في الرجاء ألا يضيّق على قلم عدوان أو يحجب صوته، وبين الوزير الذي أصر على موقفه، ساردا بعض عبارات كتبها الشاعر المعارض، ولكنه ما لبث أن وعد بالاستجابة لرجاء محمود درويش.

كم بهرني موقف شاعرنا الكبير الراحل، إذ كان يدافع عن قضية وعن صديق يشاركه في الهم القومي وفي الإبداع الشعري ، مقدما درسا بليغا للأدباء العرب الذين يستبدلون بلغة التواصل والمحبة والتنافس الشريف لغة التنابذ والهجاء والأنانية المفرقة ، غافلين أن القمة تسع الكثيرين ما داموا صادقين في مشاعرهم وأفكارهم ، قادرين على الدفاع عن حقوق الإنسان ، غير منافقين للسلطة الحاكمة ، ابتغاء رضاها عنهم كي يفوزوا بالمناصب والمغانم .

وأذكر للشاعر العظيم موقفا آخر دالاً على ثوريته الجياشة ومنابع الإنسانية التي تتجلى في تواضعه ومحبته لأبناء الشعوب العربية ، وكان ذلك بمدينة وهران عاصمة الغرب الجزائري، حيث أقيمت أمسية شعرية له وفد إليها من شتى البقاع مئات من الأدباء والمثقفين ، فأقبلوا محتشدين لرؤيته والاستماع إلى أشعاره التي تغنى فيها بالمقاومة الفلسطينية. وكان من الطبيعي أن يتجاوب الحاضرون من مختلف الأجيال مع شاعر الثورة الفلسطينية، فهي توأم ثورة التحرير الجزائرية التي ضحى فيها الشعب بمليون ونصف المليون من خيرة أبنائه (١٩٥٤ – ١٩٦٢) حتى تمكن من دحر الاستعمار الاستيطاني الفرنسي .

ولم تكد تنتهي الأمسية ويغادر محمود درويش المنصة حتى هرع إليه الشباب الجزائريون في موجات متوالية يريد كل منهم أن يصافحه ، ورأيته وهو يشد على الأيدي الممتدة إليه ، وكأنه رغم الزحام يريد أن يعانق كل شاب جزائري . رحمه الله فقد كان يفيض رقة وتواضعا ، ويصدق قوله فعله. وما أجدر بنا نحن الشعراء والكتاب أن نقتدي بهذا القلم الشامخ، وأن نحكي سيرته الحياتية والإبداعية للأجيال الجديدة. ■